الفَصْلُ المُفْرَدُ بَيْنَ المُصْحَفِ وَالمُسْنَدِ
عَرْضٌ وتَحْلِيلٌ لِلْمُدَوَّنَةِ الفَاطِمِيَّةِ الشَرِيْفَةِ

أحمد حسين خشَّان
ديوان الوقف الشيعي - العراق

المقدمة:

اختلفت الروايات في الاصطلاح على ما ورد عن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من مدونة اشتملت على أحاديث عن الأخلاق والآداب، وجملة مما يكون من حادث، وأسماء كل مَن يملك إلى أن تقوم الساعة، ففريق أطلق على هذه المدونة اسم (مصحف)، وفريق آخر وسمها بـ (مسند)، وكلٌّ له حجته في ما ذهب إليه، غير أن المدلول اللغوي والموضوعي يختلف كثيراً بين المصحف والمسند، لذا تعنى هذه الدراسة المقتضبة بتصنيف المصطلحين وفق منهج علمي دقيق يفرز الأثر المتحصِّل في طبيعة هذه المدونة بوصفها حادثة تاريخية مهمة في التاريخ الإسلامي، وتصحيح التصورات الواهمة التي تُؤَسس على الشبهات ومحاولة إلصاقها بالمعتقدات الإسلامية -تقدست ساحتها -والتمثيل لقيم الحق بمنظور موضوعي قويم.

وتبدو أهمية هذه الدراسة في التوصل إلى الفصل في المفاهيم، والبت في توحيد المصطلحات بغية سد باب الذريعة أمام الناكثين والقاسطين من ذوي الشبهات والافتراءات الذين يحاولون على الدوام الإساءة إلى عقيدة أتباع أهل البيت عليهم السلام، وكذلك فتح السبيل للتصحيح والرجوع

عن الغفلة.

وتهدف الدراسة -أيضاً- إلى بيان الحادثة التاريخية في سياق الدليل المحكم، بأثر من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وأحاديث الأئمة الأطهار عليهم السلام المسندة.

تتناول الدراسة الفصل بين المصطلحين والكشف عنهما في اللغة والاصطلاح، ومعرفة أيهما أقرب في الدلالة إلى المدونة من خلال هذا التصنيف، بالإضافة إلى استقراء ما ورد فيها وتحديد التوافقات الموضوعية في جملة المصاديق على عنوان هذه المدونة الشريفة.

منهج الدراسة وصفي يعتمد الحقائق المبثوثة في كتب التاريخ، والحديث، وتلتمس المعاجم اللغوية في بيان المبنى والمعنى، وكذلك الدراسات الإسلامية التي تناولت الموضوع بالبحث والتحليل.

تشتمل الدراسة على مبحثين؛ الأول: محاولة للتصنيف، بمعنى تصنيف المصطلحين في المناهج اللغوية والاصطلاحية، وما يوافق المدونة في المدلول، والمبحث الثاني: عرض وتحليل للحادثة، في مقاربة تاريخية خالصة، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: محاولة للتصنيف:

المصحف في اللغة: المصحف -مثلثة الميم من أصحف بالضم -أي جعلت فيه الصحف[1]، وسمي المصحف مصحفاً لأنه أصحف أي جعل للصحف المكتوبة بين الدفتين.

الصَحْفَةُ كالقصعة، والجمع صِحافٌ. والصَحيفَةُ: الكتابُ، والجمع صُحُفٌ وصَحائِفُ. والمُصْحَفُ والمِصْحَفُ. قال الفراء: وقد استثقلت العربُ الضَمَّةَ في حروفٍ فكسروا ميمها وأصلها الضمُّ، من ذلك مِصْحَفٌ، ومِخْدَعٌ، ومِطْرَفٌ، ومِغْزَلٌ، ومِجْسَدٌ: لأنَّها في المعنى مأخوذة من أُصْحِفَ أن جمعت فيه الصحفُ، وأُطْرِفَ أي جُعِلَ في طرفيْهِ عَلَمان، وأُجْسِدَ أُلْصِقَ بالجسد. والتَصْحيفُ: الخطأ في الصحيفة[2].

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، مادة (صحف).

(٢) الصحاح في اللغة، الجوهري، تحقيق: أحمد

صحيفة وصحف وصحائف وهي قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه، وهو صحفي وصحاف. وهو لحانة مصحف. وصحف الكلمة. ووجهه كورقة المصحف... وتقول: صحائف الكتب، خير من صحاف الذهب. والصحفة: القصعة المسلنطحة. ومن المجاز: صن صحيفة وجهك وهي بشرته[٣].

أما لفظ المصحف فقد ورد في كتاب لسان العرب: المصحف والمصحف الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين كأنه أصحف والكسر والفتح فيه لغة[٤]، وفي المصباح المنير: والصحيفة قطعة من جلد أو قرطاس كتب فيه... والجمع صحف بضمتين وصحائف... والمصحف بضم الميم أشهر من كسرها.

المصحف في الاصطلاح: المصحف اسم مفعول... وحقيقتها مجمع الصحف أو ما جمع منها بين دفتي الكتاب المشدود.. وفيه لغتان أخريات وهما المصحف والمصحف جمع مصاحف[٥]. وبناءً عليه، فالمصحف ليس اسماً مختصاً بالقرآن الكريم، والمصحف كل كتاب أصحف وجمع بين دفتين، لكن كثرة استعماله في القرآن الكريم أوجبت انصراف الأذهان إليه.

ويورد السيوطي في الإتقان رواية- أجدها ضعيفة وغير ناهضة -عن كلمة مصحف فيقول: حكى المظفري في تاريخه، قال: لما جمع أبو بكر القرآن قال: سمُّوهُ، فقال بعضهم: سمّوه انجيلاً، فكرهوه، وقال بعضهم: سمّوه السِفر، فكرهوه من يهود، فقال ابن مسعود: رأيت بالحبشة كتاباً يدعوه المصحف فسمّوه به[٦]، ويأتي

عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م، مادة (صحف).

(٣) أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، مطبعة أولاد أورفاند، القاهرة، ١٩٥٣م، مادة (صحف).

(٤) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، مادة (صحف).

(٥) المصباح المنير، الفيومي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م، مادة (صحف).

(٦) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ١/ ٦٤، والقرآن المجيد، محمود الشرقاوي، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧١م، ١٥.

ضعف هذه الرواية من أن تسمية القرآن الكريم (بالقرآن) جاءت نصاً غير قابل للتفاوت، فقد جاء لفظ (القرآن) في نحو من سبعين آية، وكان في كلها صريحاً في اسميته ومدلوله الخاص، من أجل ذلك كتبت لهذا اللفظ الغلبة على غيره، وكان هذا الاسم الغالب لكتاب الله الذي جاء به محمدﷺ وحفظه عنه المسلمون[٧]، ويقول الدكتور محمد دراز: ((روعِيَ في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن))[٨].

المسند في اللغة: يقول صاحب الصحاح في اللغة:

السَنَدُ: ما قابلك من الجبلِ وعلا عن السفح. وفلان سَنَدٌ، أي معتمَدٌ. وسَنَدْتُ إلى الشيء أَسْنُدُ سُنوداً، واسْتَنَدْتُ بمعنىً. وأَسْنَدْتُ غيري. والإسنادُ في الحديث[٩]: رفْعُه إلى قائله. وخُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ، شدّد للكثرة. وتَسانَدْتُ إليه: استندت. وخرج القوم مُتَسانِدينَ، أي على راياتٍ شتى ولم يكونوا تحتَ راية أمير واحد. والمُسْنَدُ: الدهرُ. والمسنَدُ: الدَعِيُّ. والمسندُ: خطٌّ لِحِمْيَرٍ مخالفٌ لخطِّنا هذا. والسِنادُ: الناقة الشديدة الخَلْقِ. والسِنادُ في الشعر: اختلاف الرِدْفين.

وسانَدْتُ الرجل مُسانَدَةً، إذا عاضدْتَه وكانفْتَه[١٠]. ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: تساند إلى الحائط. وسوند المريض، وقال: ساندوني. ونزلنا في سند الجبل والوادي وهو مرتفع من الأرض في قبله، والجمع أسناد. وناقة سناد: طويلة القوائم. وساند الشاعر سناداً. ولا أفعله آخر المسند وهو الدهر. ورأيت مكتوباً بالمسند كذا وهو خطّ حمير.

ومن المجاز: أسندت إليه أمري، وأقبل عليه الذئبان متساندين: متعاضدين. يقال: غزا فلان وفلان متساندين، وخرجوا متساندين على رايات شتى كل على حاله. وهو سندي ومستندي، وسيد سند.. وكان فلان في مشربة فأسندت إليه

(٧) ينظر: تاريخ القرآن، إبراهيم الأبياري، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٥م، ٨٤.

(٨) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥م، ٧.

(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، مادة (سند).

(١٠) الصحاح في اللغة، الجوهري، مادة (سند).

أي صعدت. وناقة مساندة القرا: قويته كأنما سوند بعضه إلى بعض.

وأحسن إليه فهو يسانده: يكافئه[11].

المسند في الاصطلاح: حديث مسند، والأسانيد قوائم الحديث، وهو حديث قويّ السند. وفي علم الحديث: المسند في اللغة أعم من ذلك، فإن اللغة تدل على أن المسند هو الذي أُسند إلى راويه، سواء كان مرفوعاً، أم غير مرفوع، أو كان متصلاً، أو منقطعاً، لكن الذي عليه أكثر المحدثين في علم الحديث أن المسند هو الذي اتصل إسناده إلى رسول الله ﷺ، وبين المسند لغةً، وبين المسند اصطلاحاً فرق، والنسبة بينهما العموم والخصوص، فالمسند في اللغة هو: ما أسند إلى قائله، سواء كان مرفوعاً، أو موقوفاً أو مقطوعاً.

فإذا قلت: قال فلان كذا، فهذا مسند، حتى ولو أضفته إلى واحد موجود تخاطبه الآن، فلو قلتُ: قال فلان كذا، فهذا مسند؛ لأني أسندتُ الحديث إلى قائله، لكن في الاصطلاح: المسندُ هو المرفوع المتصل السند، فالمسند اصطلاحاً، أخصُّ من المسند لغة، فكل مسندٍ اصطلاحاً، فهو مسندٌ لغة، ولا عكس، فبينهما العموم والخصوص.

ويبدو أنَّ الكثير من الناس كانوا ولا زالوا يتصوَّرون أنَّ المصحف يشتمل على الآيات القرآنية الشريفة، أو أنَّ هناك قرآناً آخر عند الشيعة، كما يزعم بعضُ الجُهَّالُ من العامَّة.

ولكنَّ الواقع هو خلاف ذلك، فإنَّ المصحف لا يشتمل حتى على آية واحدة من آيات القرآن الكريم، كما هو المستفاد من الأحاديث الكثيرة، كما أنَّه ليس من قبيل القرآن ولا يشبهه من ناحية المحتوى أصلاً، فهو من مقولةٍ أخرى، فالأحاديث صريحةٌ في ذلك فقد ورد في حديث عن علي بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام: ((... ما فيه آيةٌ من القرآن))[12].

وعلى هذا الأساس كان مصحف فاطمة عليها السلام، هذا المصحف الذي أثاروا عليه الأقاويل الباطلة التي ليس لها أي

(١١) أساس البلاغة، الزمخشري، مادة (سند).

(١٢) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ٢٦/ ٤٢، الباب الأول، رواية ٧٤.

حقيقة وأي برهان سوى أنهم اعتبروا إطلاق هذا المصحف على أنه قرآن غير القرآن الموجودة حاليا وأنه عند الشيعة يخفونه تقية[١٣]، وأمثال هذه الدعاوى الباطلة والتي لا تمت إلى الدين بصلة وكل دليلهم الذي اعتمدوه هو أن لفظ المصحف يطلق على القرآن لذلك قالوا بأن مصحف فاطمة قرآن غير هذا القرآن الكريم المتداول الآن.

أما ما روي عن (مسند فاطمة الزهراء عليها السلام)[١٤]، فقد كانت الزهراء عليها السلام ربيبة العلم والتقى، وكان حظها منهما وفيراً، ويدلنا على شيء من ذلك بعض ما أُثر عنها من الأحاديث التي روتها عن رسول الله صلى الله عليه وآله بالمباشرة في الأحكام والآداب والأخلاق وفضائل أهل البيت عليهم السلام، وقد جُمع في ما سُمِّي بـ (مسند فاطمة الزهراء) لعدة مؤلفين؛ في طليعتهم جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، والثاني للسيد حسين التويسركاني، وقد جمع فيه (٢٦٠) حديثاً مما نُقل عن الزهراء عليها السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، والثالث الشيخ عزيز الله العطاردي، والرابع الشيخ أحمد الرحماني الهمداني حيث جمع في كتابه (فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى) ما يقارب (٨٤) حديثاً مما نُقِل عنها في كتب الخاصة والعامة.

ومهما يكن من أمر فإن كلا المصطلحين (المصحف/ المسند) لا يدلان على القرآن الكريم لا من بعيد ولا من قريب، فلو قلنا: مصحف

(١٣) ينظر: مستدرك سفينة البحار، علي النمازي الشاهرودي، تحقيق: حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٩هـ، ٦/ ٢٠٤، و موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، هادي النجفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ١/ ٧٢.

(١٤) ينظر: دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤١٣هـ، ٣٩، و مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام وما نزل من القرآن في علي عليه السلام، ابن مردويه الأصفهاني، تحقيق: عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين، دار الحديث، قم، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٤١٦، و لسان الميزان، ابن حجر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٩٧١م، ٣/ ٢٨، وأعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، (د. ت)، ٢/ ٥٤.

فاطمة الزهراء عليها السلام فالمراد منه مسند فاطمة الزهراء عليها السلام، والعكس صحيح أيضاً، لا فرق بينهما في الدلالة على ما خلفته السيدة الزهراء عليها السلام من صحف فيها ما يكون من حادث، وروايات عن الأخلاق والآداب والأحكام الشرعية القويمة، وجملة من الأخبار الغيبية.

إذن يظهر من هذه المعاني التي وردت في صحاح اللغة أن (المصحف والمسند) لهما دلالة واحدة تنصرف إلى ما جُمعت فيه الصحف وليس كما يدَّعي الناكثون، ويزعم الجاحدون أنها قرآن غير هذا القرآن الموجود بين المسلمين، وهناك شواهد أخرى تثبت هذه الحقيقة حيث ورد في حديث عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام أنه قال[١٥]: وأن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام، وما يدريهم ما مصحف فاطمة؟. قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد، إنما هو شئ أملاها الله وأوحى إليها. قال: قلت: هذا والله العلم.

ولأجل تأكيد صحة العقائد الإمامية في قضية عدم وقوع التحريف في القرآن الكريم، وعدم وجود قرآن آخر والعياذ بالله، فقد راق هذا الحديث كثيراً من أعداء الإسلام فاغتنموا الفرصة عند حدوث مثل هذا التساؤل ووسَّعوا الحديث في ذلك وأطالوا الوقوف لا التحقيق، بل للفت نظر أكبر عدد من الناس إلى وجود هذا الاحتمال ولحاجة في نفوسهم، وقد استغلوا جهل وعصبية بعض المسلمين فحركوا أقلامهم ودفعوها إلى الجموح في معارك على مختلف أبعاد العقيدة، ومنها هذا البعد؛ لذا صار لزاماً أن تُساق البراهين القاطعة والأدلة الأكيدة بوجه مزاعمهم وبهتانهم لإحقاق الحق وإنارة السبيل أمام الرأي العام المنصف، بما يلي: ((إن من المتسالم عليه عند الشيعة، والذي عليه جمهور مجتهديهم هو عدم وقوع التحريف بالقرآن، وأن القرآن الموجود بأيدي المسلمين فعلاً هو جميع القرآن الذي نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وآله، وقد

(١٥) ينظر: بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار، تحقيق: حسن كوجه ياغي، منشورات الأعلمي، طهران، ١٤٠٤هـ، ١٧٢ وما بعدها، وبحار الأنوار، المجلسي، ٢٦/ ٢٦، ٤٣، ٤٧، ٢٧١.

صرَّح بذلك فطاحل علماء الإمامية ومنهم مَنْ ذكرهم السيد الخوئي في كتابه البيان وهم: -

١. الشيخ الصدوق محمد بن بابويه القمي الذي اعتبر عدم التحريف من معتقدات الشيعة.

٢. الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان وقد ذهب إلى عدم التحريف وذكر أن ذلك هو رأي أستاذه السيد الشريف المرتضى الذي بالغ في الدفاع عن هذا الرأي.

٣. شيخ الفقهاء -كما يسمونه -الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي ذهب إلى أن الشيعة إجماعهم على عدم التحريف مؤكَّد.

٤. الطبرسي في تفسير مجمع البيان، فقد ذهب إلى عدم التحريف ودلل عليه.

٥. الشهنهاني في كتابه العروة الوثقى، والملا محسن الفيض في علم اليقين، والشيخ جواد البلاغي في آلاء الرحمن، حشدوا البراهين على عدم وقوع التحريف بالقرآن.

٦. ونقل أن ذلك رأي الشيخ المفيد والشيخ البهائي والقاضي نور الدين، هؤلاء كلهم عكسوا لنا رأي الإمامية في عدم وقوع التحريف بالقرآن واستدلوا على ذلك بأدلتهم المذكورة في مواطنها))[١٦].

المبحث الثاني:

(المدونة الفاطمية) عرض وتحليل

القرآن الكريم وحي يوحى وتنزيل يتنزل لم يكن بدعاً من حديث السماء الذي أوحى به الله على أنبيائه ورسله المصطفين الأخيار ((إن المواقف الدينية التي عبَّر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناءً دينياً جديداً متميزاً))[١٧]، وقد حفظ الله هذا القرآن بكتابته في السطور ونقشه في ألواح الصدور فلم يُحط كتاب سواه بمثل العناية التي أحيط بها ولم يصل

(١٦) القرآن نظرة عصرية جديدة، (ادعاء وقوع التحريف في القرآن وموقف الشيعة منه، أحمد الوائلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ١٤١-١٤٢.

(١٧) دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون جب، ترجمة: إحسان عباس وآخرين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ٢٥٥.

كتاب كما وصل إلينا بتواتر سوره وآياته وألفاظه وحروفه فهو كتاب الله المجيد الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت: ٤٢]، وهو الذكر الذي لم ينطق إلا بالحق ولم يعلّم إلا الهدى وقد تعهده الله سبحانه بالحفظ من عبث السنين وتحريف العابثين فقال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩]، كيف نفهم هذه الآية المباركة في ضوء بعض الروايات المدوّنة في كتب المسلمين والتي يستفاد منها وقوع الزيادة والنقصان في القرآن؟. ((مع أن القرآن يمكن اعتباره وسيلة وأداة أُعطيت لمحمدﷺ للمعاونة على نجاح رسالته، إلا أن حكمة الله اقتضت أن يكون القرآن كياناً متكاملاً ومستقلاً... وأن القرآن احتشدت فيه كل وسائل الدعوة الكاملة وأساليبها))[١٨]، وماذا عن المدونة التي وُسِمَت بمصحف فاطمة الزهراءعليها السلام وغيره من المصاحف الأخرى التي يظن بعض العامة من الناس أنها قرآن غير هذا القرآن؟. ثم أو ليس التأويل الذي لا يستند إلى علم أو حديث صحيح هو لون من ألوان التحريف الذي يخدش بحقيقة حفظ القرآن؟.

نعم قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ

(١٨) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ٢٦.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٦ – ٢٠].

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ قالوها على سبيل السخرية والاستهزاء فقد نادوه بهذا النداء في الوقت الذي كانوا ينكرون عليه نزول الوحي من قبل الله وربما كان الإتيان بالفعل المبني للمجهول للإيحاء بالجهل بالجهة التي كانت مصدر هذا الذكر لديه ممّا يبعث على عدم الوثوق به إنك لمجنون لأنك تدعي أمراً لا يدعيه ذو عقل ممن يزن الأمور ميزان العقل وكيف يمكن لبشر أن يدعي نزول الوحي عليه من السماء وهو أمر لا يمكن حدوثه للبشر لأن للنبوة علامات لا نجدها عندك لو ما تأتينا بالملائكة معك ليشهدوا لك بما تدعيه فذلك هو السبيل الوحيد للدلالة على أن هناك علاقة بينك وبين العالم العلوي الذي يمثل الملائكة جزءاً منه إن كنت من الصادقين فيما يفرضه الصدق من دلائل وعلامات.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ وهذا جواب الله لهم فيما اقترحوه فإن الله لا يحدث أي أمر خارق للعادة، كنزول الملائكة إلا بالحق الفاصل الحاسم الذي يستتبع نزول العذاب عليهم في حال إنكارهم له فلا ينظرهم الله بعد ذلك ولا يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وتلك هي سنة الله في عباده عندما يستجيب لهم فيما يقترحونه من معجزات فلا يمهلهم بعد ذلك إذا استمروا على التمرد ولعل هذا التفسير لكلمة الحق هو أقرب الوجوه لأجواء الآية والله أعلم، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ الذي تواجهون آياته بأساليب السخرية من دون وعي أو مسؤولية لأنكم لا ترتكزون في موقفكم من الرسالة من موقع التأمل والتدبر لتعرفوا عمق الإعجاز في ذلك كله وتلتفتوا إلى أن الله هو الذي أنزل آياته لتكون نوراً وهدى للناس وأن البشر لا يمكن أن يأتوا بسورة من مثله لأن خصائص الإبداع في الشكل والمضمون فوق قدرتهم ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ من الضياع ومن التحريف ليبقى وثيقة إلهية معصومة ثابتة ليرجع الناس إليها في كل جيل

عندما تشتبه الأمور وتضطرب الأفكار وتختلط المفاهيم وتحرك التيارات المضادة أو التحريفية وتكثر الأكاذيب على صاحب الرسالة فإن القرآن هو الذي يبقى المرجع المعصوم الذي يمثل الحقيقة الإلهية في كل آياته والميزان الصادق الذي يمكن للناس من خلاله أن يزنوا به الحديث الصادق من الكاذب عندما يعرضون التركة الكبيرة المثقلة من الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ لأن ما خالف كتاب الله فهو زخرف على ما جاء به الحديث عن أئمة أهل البيت وذلك من خلال الإشراق الداخلي في آياته بالمستوى الذي لا يمكن أن يشتبه فيه الأمر على أحد بحيث يستطيع العارف بخصائص الأسلوب القرآني أن يكتشف سر الزيف في كل كلمة تضاف إلى القرآن فيما يضعه الواضعون أو يحرفه المحرفون فلا تقترب الكلمة من الآية لا لتبتعد عنها فلا تؤثر على سلامة النص القرآني في وعي المسلمين.. وهذا هو ما نلاحظه في إجماع المسلمين إلا شاذاً منهم على أن النص القرآني الموجود بين الناس فيما بين الدفتين هو كل ما أنزله الله على رسوله من دون زيادة أو نقصان وإن الباطل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه.

أما القول الصحيح في هذا المقام فبعد معرفة أن فاطمة عليها السلام كانت محدثة دون أن تكون نبية وحسب ما ورد من الاستدلال على هذه المسألة، فإن حديث الملائكة لها كان يكتب من قبل الإمام علي عليه السلام أو من قبل فاطمة نفسها سلام الله عليها وهذا ما يظهر من الأحاديث الآتية، أما مضمون هذا المصحف وماهيته وكيف نعطي القول الفصل فيه فهذا ما سيتبين من خلال بيان معنى لفظ المصحف، وماهية مضمون هذا المصحف وما فيه من العلم والأحداث والأمور الغيبية.

مصحف فاطمة عليها السلام

لقد أثار مصحف فاطمة عليها السلام حفيظة العديد من الكتّاب، واتخذوا منه وسيلة للطعن والتشنيع على أتباع أهل البيت عليهم السلام، تارة باستغلال اسمه -باعتبار أنه يطلق عليه اسم مصحف -وجعله باباً لاتهامهم

بأنهم لا يعترفون بالقرآن الموجود بين الدفّتين والمتداول بين المسلمين قاطبة، فيوقعون الناس في وهم بأنّ مصحف فاطمة المذكور هو القرآن الذي يعتقده الشيعة.

مصحف فاطمة في أخبار أهل البيت عليهم السلام:

١. عن أبي حمزة أن أبا عبد الله عليه السلام قال: (مصحف فاطمة ما فيه شيء من كتاب الله)[١٩].

٢. عن عنبسة بن مصعب عن أبي عبد الله عليه السلام: (... ومصحف فاطمة أما والله ما أزعم أنه قرآن)[٢٠].

٣. عن علي بن أبي حمزة عن الكاظم عليه السلام قال: (عندي مصحف فاطمة ليس فيه شيء من القرآن)[٢١].

٤. عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام، وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟. قال: قلت: وما مصحف فاطمة عليها السلام؟. قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد)[٢٢].

٥. عن سليمان بن خالد قال أبو عبد الله عليه السلام: (وليخرجوا مصحف فاطمة فإن فيه وصية فاطمة)[٢٣].

تبين من خلال هذه الروايات أن مصحف فاطمة عليها السلام ليس قرآناً، بل هو كتاب حديث متضمناً لبعض المعارف التي تلقتها عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله. وكذلك تذكر الروايات على شمول مصحف فاطمة عليها السلام على وصيتها.. وربما يتحدث بعض الناس عن شيء اسمه مصحف الزهراء انطلاقاً من بعض الأحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام التي قد توحي بأنه يمثل قرآناً آخر أو شيئاً من القرآن فيما تتحدث به بعض تلك الكلمات: (إنه ثلاثة أمثال قرآنكم) (وما فيه حرف من القرآن) ولكن النظرة

(١٩) بصائر الدرجات، الصفار، ١٧٢، وبحار الأنوار، المجلسي، ٢٦/ ٣٨، ٤٧، ٢٧١.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) المصدر نفسه.
(٢٢) الكافي، الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥، ١٣٦٣ش، ١/ ٢٣٩ وما بعدها.
(٢٣) بصائر الدرجات، الصفار، ١٧٦، وبحار الأنوار، المجلسي، ٢٦/ ٢٧٦.

الناقدة لهذه الأحاديث تدل على نفي كونه قرآناً وفي بعضها فيما ورد عن الإمام جعفر الصادق (عندي الجفر الأبيض... ومصحف فاطمة... أما والله ما فيه حرف من القران ولكنه إملاء رسول الله وخط علي) ممّا يوحي بأنه ليس مصحفاً كبقية المصاحف فيما توحي به كلمة المصحف ولكن كتاب حديث يشتمل على أحكام الشرع ممّا أملاه رسول الله على علي عليه السلام وفي بعض الأحاديث إن فيه وصية فاطمة عليها السلام ولعل الملاحظ في مثل هذا الموضوع الذي يثير مثل هذه الضجة لدى الكثير من الكتاب أنه يتحرك ضمن خطة إعلامية تستهدف تسجيل نقطة سلبية ضد بعض المذاهب الإسلامية من دون نقد أو تمحيص ولكننا نحب أن نثير القضية من جهة أخرى وهي أن أي مسلم مخلص يستطيع أن يعرف كذب مثل هذه الإثارة من خلال ملاحظة حاسمة وهي إنه لو فتش في شرق الأرض وغربها على نسخة واحدة من مصحف فاطمة لم يجدها لأنها لا وجود لها أساساً في كل الأوساط حتى بطريقة خفيه وليس هناك من يعتقد بشيء من هذه القبيل من قريب أو من بعيد وهذا ما نحب أن نؤكده خدمة للحقيقة القرآنية...

المهم هو الإشارة إلى أن مصحف فاطمة كبقية الصحف والكتب لم تنتقل إلى غيرهم عليهم السلام، ولتصل إلى شيعتهم، وليس هناك أي واقع لما يدّعيه افتراءً بعض الكتاب من كون هذا المصحف متداولاً في بعض مناطق الشيعة، لا في بلاد الحجاز ولا في غيرها، والمؤسف أن أصحاب هذه الأقلام يطلقون العنان لأقلامهم دون تدبر ولا تثبّت، ويأخذون معلوماتهم من العوام، ويصدقون كلّ مقولة للطعن والتشنيع، فيثبتونها في كتبهم لتصبح بعد ذلك مصادر يعتمد عليها المأجورون والسّاعون وراء تفريق المسلمين وزرع الفتن بينهم.

ويبقى أمامنا في حديث حفظ القرآن من قبل الله ما يجب أن نثيره من التركة المثقلة من الأحاديث التي تتدخل في تفسير القرآن لمصلحة هذا الفريق أو ذاك بالمستوى الذي يسيء إلى الفهم القرآني المنفتح عندما يحاصره التأويل والتفصيل

من كل جانب.. ممّا يجعل النص القرآني أدباً رمزياً لا تعبر فيه الكلمة عن المعنى إلا بطريقة بعيدة جداً ممّا يبعده عن الأسلوب البلاغي الأمر الذي نلاحظ فيه أن هؤلاء الناس قد يهمهم حماية مذاهبهم وأفكارهم الخاصة أكثر ما يهمهم حماية كتاب الله إذ لا يكفي وجود حديث واحد من شخص ثقة بحسب الموازين الفنية في علم الحديث لنرفع اليد عن الإشراق التعبيري للقرآن فيما يتضمنه من معنى أو يدل عليه من ظاهر لأن القرآن يمثل الكتاب المعصوم الذي نقطع بصحة كلماته المنسجمة مع أروع الأساليب الفنية في اللغة العربية فلابدّ في تأويله والخروج عن ظاهره من وثيقة حديثية بالقوة التي تناسب مع قوته أو تكون قريبة منه مع ضرورة دراسة طبيعتها المضمونية ومدى ملاءمتها للأجواء العامة للقرآن روحاً ومنهجاً وفكراً وتطبيقاً.

إننا نضع هذه الملاحظة أمام الدارسين ليدرسوها حتى لا نضيع في متاهات الأحاديث الكثيرة التي تتحدث عن تأويل القرآن وتتصرف بطريقة أو بأخرى من دون أية محاكمة دقيقة فنبتعد بذلك عن صفاء الوحي الإلهي لنفرض عليه فكراً من فكرنا ونخضعه لخلافتنا فلا يصلح بعد ذلك لأن يكون حكماً فيما نختلف فيه لابتعادنا عن صفاء مدلوله وإشراق معانيه.

ونحب أن نعود في نهاية المطاف إلى مسألة حفظ القرآن لنؤكد أن استمرار القرآن لدى جميع المسلمين في صيغة واحدة فيما يلتزمونه كمصدر للتشريع وفيما يقرأونه في الصلاة وفي غيرها وفيما يثيرونه في حياتهم من خلاله من مفاهيم وعقائد هو الدليل على ذلك فليس هناك في العالم الإسلامي كله ولا في غيره صيغة أخرى أو نسخة أخرى يختلف فيها القرآن لدى مذهب عن القرآن لدى مذهب آخر بالرغم من وجود كلمات شاذة هنا أو هناك فإن مثل هذه الكلمات لم تستطع أن تنفذ إلى مستوى العقيدة العامة.

وإذا كان بعض هؤلاء الذين ذهبوا إلى التحريف يملكون موقعاً متقدماً

من حيث العلم والوثاقة لدى أهل مذهبهم فإنهم لم يتمكنوا من النفاذ إلى الواقع العقيدي العملي في داخلهم كما إنهم لا يملكون الوعي الفكري القرآني الذي يستطيعون من خلاله إدراك خطورة السلبية الكبيرة في هذا الاتجاه على مستوى العقيدة الإسلامية عندما يتسرب الخلل إلى النص القرآني..

هذا إلى جانب أن هؤلاء لا يملكون الذوق الفني الذي يعينهم على فهم أسرار اللغة العربية ليقارنوا بين هذه الكلمات التحريفية وبين طبيعة الأسلوب القرآني المعجز.

إننا لا نريد لهذا اللغو أن ينفذ إلى أجواء القرآن كما لا نريد لهذا الجدل العقيم الذي اتخذ أسلوب الحرب الكلامية التي لا يعتمد أصحابها على قاعدة ثابتة للحوار بل كل ما هناك أن هذا الفريق يريد أن يسجل نقطة ضد الفريق الآخر لحسابات مذهبية أو سياسية.

الخاتمة:

وبعد انتهاء الدراسة حسبنا أن نعلم بأن القرآن الكريم الذي بين أيدينا اليوم ونستوحي حوارنا من هديه ونوره قد جمع في عصر النبيﷺ وفي حياته وكانت المصاحف تكتب من ذلك الذي جمع في زمانهﷺ لا من صدور الصحابة وشهادة الشهود فحسب وقد رافقت فاطمةعليها السلام أباها النبي وزوجها الوصي وهما يوجهان الأمة إلى كتابة القرآن وحفظه وجمعه وتعليمه والعمل به ولذلك نلاحظ من خلال دراستنا لخطب الزهراءعليها السلام بعد وفاة أبيهاﷺ كيف صاغ القرآن حجتها الدامغة أمام خصومها من منكري حقها في فدك وكيف وضع القرآن بين يديها الميزان كله لتفصل بين الحق والباطل في مفهوم الخلافة والولاية ولم يستكثر المسلمون عليها ذلك فهي ابنة القرآن وربيبته وقد لفتت بمنهجيتها تلك إلى أهمية مرجعية القرآن الكريم لفضّ خلافات المسلمين ونزاعاتهم فليس بعد كلام القرآن كلام وليس بعد كلام، وأرى-من وجهة نظر علمية-توحيد المنهج، وأدعو إلى وضع وحدة دلالية لجميع المفاهيم المتعلقة بالعقيدة الإسلامية بله الشيعية منها؛

لكي تعرض منهجها بالدلالة الموثقة المستوحاة من فكر أئمة أهل البيت عليهم السلام، وإسكات كل الأصوات التي من شأنها بلبلة الفكر وتشويه صورة الحق بآليات قذرة وأساليب متدنية غرضها صرف الناس عن وجهة الحق والعدل التي تتجه صوب منظومة الأئمة الأطهار عليهم السلام.

ومما تقدم أرى صحة إطلاق تسمية (المصحف) أو (المسند) على ما جاء في مدونة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، مع ترجيحي لمصطلح (المصحف) على (المسند) لسببين: أحدهما لغوي يرتبط بالدلالة المتعلقة لكل منهما، والثاني موضوعي لشدة تعلق الأمر بالحادثة الشريفة؛ وعليه يتقدم المصحف عندي على المسند، ولكن المفارقة تكمن في اقتراحي الذي يفيد بوسم المدونة الشريفة بالمسند، لقطع دابر الفتنة والافتراء المحموم، وسد باب الذريعة بوجه الدس والتدليس والتشكيك وإلقام أفواه أهل السوء بالحجج القامعة والبراهين الساطعة، وتفويت الفرصة عليهم في إيقاع الناس في الفتن، اللهم أصلح.

وحسبي الله عز وجل وقصدي سبيله إلى الهدى والرشاد، والحمد لله ربِّ العالمين.